زید مطیع دماج

عراب الرواية اليمنية

ريا أحمد

عندما ولد زيد مطيع دماج عام ١٩٤٣ لم يخطر ببال أحد بأن هذا الوليد سيكون ذات يوم من أشهر الروائيين على مستوى العالم، ولم تدرك اليمن بأن هذا الوليد هو من سيحلق بالأدب المحلى عالمياً.

وعندما توفى في مارس عام ٢٠٠٠ أدركت اليمن بأن ذلك الطائر قد غادر، ولكن إبداعاته خالدة حيث ما تزال أشهر أعماله الأدبية، ألا وهم رواية «الرهينة»، تترجم إلى لغات عالمية، وما تزال طبعات الرواية في تزايد.

سيرته الذاتية:

يعتبر زيد مطيع دماج من أشهر كتّاب القصة والرواية في اليمن، إلى جانب كونه شخصية اجتماعية وسياسية بارزة. من مواليد «النقيلين» محافظة إب عام ١٩٤٣، وهو نجل المناضل الثورى المعروف الشيخ مطيع بن عبدالله دماج.

له خمس مجموعات قصصية، ورواية شهيرة هي «الرهينة» التي تُرجمت إلى عدد من اللغات العالمية وتم اختيارها ضمن أهم مائة رواية عربية في القرن العشرين، وكتاب سردي بعنوان «الانبهار والدهشة»، إلى جانب عدد كبير من المقالات السياسية والاجتماعية، وقصص وروايات تحت الطبع.

تُدرّس معظم أعماله الإبداعية في المدارس والجامعات. توفى في ٢٠ مارس ٢٠٠٠م بعد أن أثرى الساحة اليمنية والعربية بأعمال إبداعية أوصلته إلى العالمية.

تناول الكثير من الكتاب والنقاد رواية «الرهينة» التي تتحدث بتفاصيل دقيقة عما



كان مجهولاً داخل قصور الإمام، وفضح الكثير

من الاحداث، ولا سيما ما يدور في أروقة حريم

القصر كون الرهينة ما يزال صبياً ويمكنه

عندما نتحدث عن هذه الرواية وما وصلت

إليه من شهرة عالمية فلا بد من التذكير بأن

تلك الشهرة كانت في وقت كان اليمن غائبا، أو

شبه غائب، عن المشهد الثقافي والأدبي عربياً

التنقل بحرية في اروقة القصر.

زید مطیع دماج

قفز بالرواية وكاتبها من المحلية إلى العالمية. أصداء عربية عن الرهينة: «الرهينة» رواية يمنية تُكرّس عالمياً

مايا الحاج – صحيفة الحياة تُشكّل القصور الفخمة بأبراجها العالية

وغرفها الكثيرة وسلالمها المخفية وجارياتها وحرّاسها وخدّامها، موضوعة (تيمة) ساحرة تشدّ الناس إليها، في كلّ زمان ومكان. وإن حاولنا البحث في أسباب هذا الانجذاب نحو الأعمال الأدبية أو السينمائية أو حتى التلفزيونية التي تدور أحداثها في مثل هذا الفضاء، لوجدنا أنّ السبب الجوهري يرتبط أولاً في اقتفاء هذا العالم القائم بذاته على تابوات المجتمع كلِّها، من السلطة إلى الجنس، عبر المزج بين المعيش والمتخيّل. وقد تكون «ألف ليلة وليلة» هي النموذج الأشهر للدلالة على السحر الذى تكتنزه عوالم القصور، وفي قدرتها

وعالمياً، إذ لم يكن حينذاك شبكة انترنت ولا

مواقع تواصل اجتماعي التي أعطت تأشيرة

مرور لأى كاتب كما هو حاصل اليوم. كانت

الرواية وحدها، بموضوعها ولغتها السلسة، من

على استحواذ ذهن القارئ من خلال جمعها بين المعقول واللامعقول في سياق درامي مُبرر. لا شكّ في أنّ غنى الموروث العربي بحكايات القصور انعكس على الأدب العربي في مختلف أنواعه، فزخرت المكتبة العربية بروايات كثيرة تتخذ من هذا «المكان» المثير بسحره وغموضه مادة لها. ومن بينها، رواية تمكنت من أن تكون إحدى أفضل هذه الروايات، ومن ثمّ أصبحت بمثابة شهادة توثيقية لواقع الحياة في ذاك العالم المُقفل على أسراره وتناقضاته.

أحدثت رواية «الرهينة» للكاتب اليمني زيد مُطيع دمًاج عند صدورها في عام 1984 عن دار الآداب البيروتية ضجة في الوسط الثقافي العربي، باعتبارها رواية مؤسسة في الأدب اليمني. إلا أنها سرعان ما خرجت من إطارها اليمني المحلّي، لتغدو رواية مُحتفى بها عالمياً. فتُرجمت «الرهينة» منذ صدورها حتى اليوم إلى الكثير من لغات العالم، مثل الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والروسية والألمانية والصربية والهندية واليابانية... وقد صدرت أخيراً ترجمة فرنسية جديدة لرواية دمّاج، عن دار «زويه» السويسرية.

وجاءت الترجمة التي أنجزتها ندى غصن لكي تُعيد «الرهينة» إلى الواجهة في مرحلة مصيرية يعيشها العالم العربي منذ ثلاث سنوات. وفي إطار ترجمتها حديثاً، نُشرت قبل أيّام في جريدة «لوموند» مقالة احتفائية بإعادة ترجمة الرواية إلى الفرنسية، معتبرة لكرت الكاتبة أنّ زيد مطيع دمّاج منح اليمن الأربعينات «التعيسة» دماً ولوناً، بلغة شعرية متمردة خاصة جداً. «الرهينة» هي من الروايات التي نجحت في أن تتخطّى الفواصل المكانية والزمانية التي رسمها دمّاج نفسه، مع أنّها كُتبت قبل قيام الحكم الجمهوري في





ففي زمن يُسمّى مجازاً الربيع العربي، عاد الكلام عن الطغاة والفوضى والاستبداد والحرية والأمل ليحتلّ المشهد العربي، وتلك هي موضوعات الرواية. الرهينة هو بطل الرواية، والقصر اليمني هو مُعتقله. فالقصر، هذا المكان المعزول عن المجتمع، هو الداخل الذي تُحول أسواره العملاقة دون وصول الصرخات والأصوات المُهددة الآتية من الخارج إليه. ولا ندري إن كان انسجام أجواء الرواية هذه مع الواقع العربي واليمني الراهن هو ما أعاد انتباه العالم إليها، عبر إعادة ترجمتها إلى

في هذه الرواية البديعة، يأخذ زيد مطيع دمّاج (2000–2000) قارئه في رحلة تمزج بين الخرافة والحقيقة إلى قصور أحد الحكّام في عصر الإمامية في اليمن، ليضعه وجهاً لوجه أمام عالم يلفّه الغموض والأسرار. يكشف صوت الراوي بنبرته العفوية والخافةة حقيقة ما يجرى خلف جدران قصر الحاكم ونوّابه.



«الرهينة» هو صبيّ في الثانية عشرة من عمره، اعتُقل في منزله بطريقة تعسفية، عقاباً لأسرته المُعارضة لنظام الحاكم المستبد. وكما جرت العادة، نُقل الفتى إلى قلعة الرهائن حيث يُحتجز الفتية إلى حين استسلام آبائهم ورضوخهم لنظام الحاكم الجائر. لكنّ بعضهم هم أكثر حظاً من غيرهم، إذ يتم نقلهم إلى قصر من قصور الحاكم أو أحد نوّابه للعمل ك «دویدار»، وهذا ما جرى مع الراوى نفسه. وما كان انتقاله إلى ذاك القصر إلا صدمة أخرى في حياة الصبى الذي يقف على عتبة بلوغ الحلم. يتقاسم «الرهينة» غرفته مع «الدويدار» المُكلّف تدريبه، وهناك تنشأ علاقته الوطيدة مع نافذة الغرفة المطلّة على جناح الشريفة حفصة، أخت الحاكم. والمعلوم أنّ الدويدار هو عمل يقوم به فتية صغار يتقربون من حريم القصر، يخدمونهم، من غير أن يُسمّوا خدّاماً، فهم أعلى شأناً من الخدم وأقلّ شاناً من المرافقين.

يعيش الفتى الريفي صدمة الحياة في ذاك القصر/ السجن، ولا يجد مهرباً من ذاك المنفى الكبير إلا من خلال أحاديثه مع صديق





دماج مع كوكبة من المثقفين اثناء الاحتفء به

غرفته، والنافذة الصغيرة. تلك النافذة تتحوّل إلى حيّز مهم في حياة الراوي/ البطل. إنّها تقع في الوسط بين الداخل والخارج، بين القصر والمجتمع، بين الذات والآخر. ومن خلال هذه النافذة تتولد مشاعر الرهينة تجاه الشريفة الجميلة، فيراقبها وهي تجلس بجانب نافذتها، تفرد شعرها المموّج وترتدي الشفّاف من الملابس: «قمت إلى النافذة، ما يُشبه النافذة، لكى أتأمّل النجوم وبصيصاً من ضوئها. صورتها مازالت أمامي، بصوتها الرخو والمبحوح الذي ملأ مسامعي ... ». ولكن سرعان ما يتحوّل هذا الإعجاب إلى رغبة جامحة تشطر الراوى اليافع بين مشاعر الحبّ والتمرّد، وبين الرغبة والحرية. وقد اعتمد الكاتب في حبكته الروائية «حبكة المشاعر» التي استخدم فيها لغة شعرية تُكرّس رومنطيقية فتى ريفى يعيش تغيّراً في مشاعره، من غير أن تتبدّل فلسفته أو أفكاره الأساسية، ليُجسّد بذلك صورة البطل الحقيقي الذي لا يخضع.

على مدار أكثر من ربع قرن، كانت

«الرهينة» من الروايات التي شغلت الوسط الثقافي اليمني والعربي والعالمي، وقد قيل فيها الكثير حتى بات من الصعب جداً إضافة المزيد في شأن هذا العمل القوّي في سهولته والعميق في كثافته والغني في دلالاته. فالرهينة – كانت ومازالت –رواية ساحرة في مزجها بين الواقعي والغرائبي، حتى أصبح العالم المتخيّل الذي يكوّنه النصّ قريباً من العالم الواقعى المعيش. لا بل يكاد يكونه.

زيد مطيع دماج: عن ذلك اليمن الرهينة آدم الحسامي – العربي الجديد

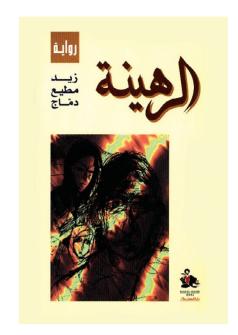
قد تُجسّد رواية "الرهينة"، للكاتب اليمني الراحل زيد مطيع دماج، وتحديداً نهايتها المفتوحة، المعضلة الكبرى لليمنيين إذا ما انطلقنا من تفكيك الرموز التي تؤثث الأبعاد الزمانية والمكانية والاجتماعية والسياسية في هذه الرواية. هي الرموز التي توارت خلفها محنة بلد قرر الانتقال من الماضي إلى المستقبل، كذلك القرار الذي اتخذته الرهينة في

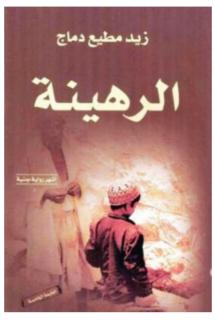
المشهد الأخير وبدأت بتنفيذه فعلاً في الصفحة الأخيرة.

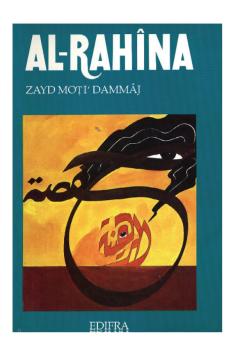
لكن، كيف رسم دماج هذا المشهد وكثف الرمزية التاريخية فيه؟ رسمه في مقبرة قريبة من القصر، في الساعات الأخيرة من النهار. جنازة متواضعة لرهينة حاولت الخروج من واقعها الدوني عن طريق التعاطي مع السلطة التى تسببت بارتهانها.

والرهينة هي الابن الأصغر لشيخ أو واحد من أعيان مناطق دولة الإمام، يأخذه طفلاً ليضمن عدم تمرّد والده، ثم يردّه إلى أبيه، عند بلوغه، ليأخذ بدلاً منه طفلاً آخر. يعيش هؤلاء الأطفال في سجن القلعة ويُؤخذ منهم خدم لقصر عامل الإمام. هذه الطريقة لضمان ولاء رؤوس المناطق، ابتدعها الاحتلال العثماني في اليمن واستمر عليها الأئمة بعد جلاء العثمانيين بداية القرن العشرين.

والمسجى في النعش رهينة أقدم من بطل الرواية، توفي بمضاعفات مرض السل، وكان في أيامه الأخيرة مهجوراً من نساء القصد







اللواتي كن خليلات فراشه. هذا الهجر كان منبها قوياً للرهينة الأحدث التي أدركت الوهم الذي تسوقه الممارسة الجنسية بألا فارق بين الدويدار (الصبي الذي يعمل في القصر) وبين الطبقة المتسلطة، حتى لو كانت هي الفاعلة على سرير الغرام.

هذا الوعي بالفارق المستحيل تبديده بمحض ممارسة جنسية أو حتى بمشاعر عاطفية، كان الدافع الكبير لهروب الدويدار عقب دفن صديقه الراحل الذي حذّره من المآل ذاته إن توهّم جدوى التعاطي مع السلطة المهيمنة مهما كانت المبررات المغرية.

عند خلو المقبرة من المشيّعين، يجد الفتى الرهينة نفسه وحيداً إلا من حفصة (أخت عامل الإمام وعشيقته)، التي تمثّل آخر قلاع مقاومة الماضي الذي لا يريد له الهروب إلى المستقبل. وتحت إصراره على عدم الرجوع، تعرض عليه الهروب معها، لكنه يرفض أن يأخذ أيّاً من متعلقات الماضى حتى لوكان جميلاً.

وقد يرمز هذا الرفض إلى البدايات

السبتمبرية الرافضة لأي مهادنة مع بقايا الحكم الإمامي. على أن نهاية الرواية تبقى مفتوحة ولا تجزم بسلامة الرهينة من تلك العلائق التى حاولت اللحاق بركب المستقبل.

رسم زيد مطيع دماج المشهد الأخير بدقة وقصدية واضحة في توظيف رموز الرواية، وبتوتر مربك لا بد أن يشعر به القارئ، ما يشي بمسؤولية تاريخية ووطنية وفنية أيضاً، انطلق منها الروائي اليمني. نقول مسؤولية تاريخية؛ لأن اليمن الذي قرر الفرار من القصر (الماضي)، لم يجد جنة الجمهورية وربيع اليمن الجديد الخالص، بل تلقّفته، كما يقول الراوي، «ظلمات الجبال المطلة على الوادي الموحش المنحدر إلى المستقبل المجهول، وأنا أتوقع صوتها أو حجراً مقذوفاً منها سيقع على ظهرى».

إنها مسؤولية وطنية لأنها لم تجنح إلى التبشيرية الثورية المفرطة والمحبطة حين تصطدم بالواقع. أما المسؤولية الفنية فنستشعرها إزاء الاتساق المنطقي لأحداث

ومآلات شخوص الرواية. فبين توقه إلى الخروج من أسر حفصة، وبين عشقه لها، كانت هي المحنة التي جعلت من قصة رهينة في قصر الأئمة محنة وجودية ليمن منتصف القرن العشرين.

وحتى السطور الأخيرة لا يعبر الراوي عن خوفه من الأحجار المقذوفة منها فحسب، بل و«من صوتها المبحوح المحبب إلى قلبي». هكذا، جمع بين خطر الأحجار وصوتها المحبب إلى نفسه، والأحجار هنا رمز للأدوات المادية السلطوية للإمامة، بينما صوتها هو ثقافة الماضي الإمامي المتجذرة في الوعي اليمني بجمالياتها وقبحها. على أن خوفه من جماليتها أكبر لأنها إحدى مبررات الرجوع روائيا، والرجعية وطنياً.

نستخلص من ذلك خطاباً ثورياً راديكالياً، لا يرتضي إزاء الإرث الملكي الحلول الوسطى للإنسان اليمني الذي ينشد يمنه الجديد بعد أن وصل إلى قناعة متقدمة إزاء اليمن القديم (حفصة). فمهما كان توقه إلى الالتحاق

بالمستقبل، إلا أن دافعه كان الطموح السلطوي فقط، أو كما أشارت إلى ذلك الرهينة حين قالت لحفصة: «أنت تطمحين ولا تحبين». يُضاف إلى ذلك بقاء العقدة الطبقية السلالية شبحاً للطرفين مهما حاولا التخلّص منها.

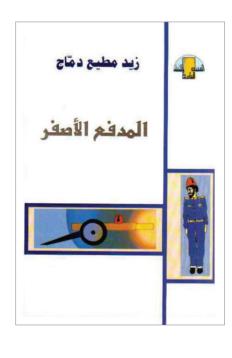
في الذكرى الخامسة عشرة لوفاة زيد مطيع دماج، نستعيده ونستعيد جل القضايا الوطنية والاجتماعية التي أثارها متنه السردي، بدافع بقاء كثير من بُنى التسلّط والتخلّف التي حاول تعريتها وهدمها في أعماله القصصية والروائية. وإذا ظن السبتمبريون أنهم طووا الصفحة الأخيرة من رواية «الرهينة»، يحاول الماضويون في حاضرنا الملتبس إعادتنا إلى بدء الارتهان بصورة أكثر قبحاً.. إذ لا حفصة هناك، في الكهوف!

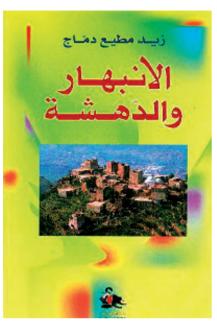
الرهينة: ورقة قديمة عن يمن قديم

موقع قود ريدز: ورقة قديمة عن يمن قديم، حياة خفية يعرضها زيد مطيع دماج وهي تدل وحدها على ما كان في اليمن من انعزال واستبداد وتخلف، يسردها في إطار روائي متميز سماه «الرهينة».

«جاءت الرهينة لتنقل الرواية اليمنية من المحلية الضيقة إلى العالمية الواسعة، وقد اعتبرت ضمن أفضل مائة رواية كتبت في القرن العشرين وطبع منها حوالي ثلاثة ملايين نسخة وترجمت إلى خمس لغات هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليابانية والصينية، وتعتبر روايته الرهينة تعبيراً واقعياً لأوجاع اليمنيين في فترة من أحلك فترات الجبروت الإمامي والتسلط الملكي البائد.

استطاع زيد دماج التعبير وبصدق عن هموم ومعاناة شعب بأكمله من خلال «رهينته» التي ستظل مصدراً ومرجعاً للباحثين والدارسين جمعت بين القصة الإجتماعية والمأساة، وبين استعراض غير مباشر للتاريخ اليمني».





الانبهار ودهشة الصبي زيد:

في عام ٢٠٠٠ صدر عن دار رياض الريس كتاب زيد مطيع دماج السردي الشيق المعنون بد «الانبهار والدهشة»، وهو الكتاب الذي تحدث فيه الراحل عن طفولته واندهاشه في مدينة «تعز» وانبهاره بقاهرة المعز حيث قُسِم الكتاب إلى: «كتاب تعز» و«كتاب القاهرة».

في مقدمة الكتاب كتب الدكتور عبد العزيز المقالح: «وإذا ما اصطلحنا على أن هذا النوع من الكتابة أشبه بالمذكرات أو السيرة الذاتية، فإننا لا بد أن ندرك الكيفية التي استطاع بها زيد أن يحولها من مذكرات ذاتية تعرض لنا مرحلة من حياته المبكرة إلى مذكرات عامة، ومن سيرة شخصية إلى سيرة التطورات التي لحقت بالبلاد، ابتداء من مغادرته القرية إلى تعز، ووقوفاً عند المناظر المؤذية للقلب والضمير كما رصدها في عودته الأولى إلى البلاد بعد أن أمضى سنوات في مصر طالباً في المرحلتين الإعدادية والثانوية، ورأى الفارق العظيم بين شعوب تعيش عصرها وشعوب العظيم بين شعوب تعيش عصرها وشعوب

مكرهة على أن تعيش في عصور بائدة أسدل عليها الزمان ستائر النسيان».

سيرة التطورات في الانبهار والدهشة ربًا أحمد

أيستطيع القاص أو الكاتب أن يكون رساماً كما يستطيع الفنان التشكيلي أن يكون كاتباً، إن صورة واحدة تبدؤها أنامل الفنان تعبر عن قصة أو ربما رواية.

ما علينا إلا ترك العنان لمخيلتنا، لتسرح في أجواء تخلقها لنا لوحة صامتة، ربما لن يجيب عن هذا السؤال سوى قلم القاص اليمني الراحل زيد مطيع دماج، فقام كاتبنا الكبير يتمحور على يده ليكون ريشة مبدعة ترسم بدقة متناهية مجتمعاً كان، وترسم واقعاً نحن بحاجة لمعرفته أكثر:

فبعد رائعته «الرهينة» التي رسم على صفحاتها حقبة زمنية من أهم محطات التاريخ اليمني بأسلوب روائي لم يتكرر حتى الآن، يأتى لنا بـ «الانبهار والدهشة»، حيث

يتخذ قلمه شاكلة الريشة الرقيقة تارة ورشاقة القلم تارة أخرى، في كتابه الذي جاء بصورة مذكرات تتنازعها الأماكن وتتناقلها السنوات..

تعمد الكاتب تجزئة الكتاب إلى فصلين «كتاب تعز» و«كتاب القاهرة» ليبين لنا مدى الانبهار والدهشة التي التصقت بشخصية «الصبي. زيد» الذي وفد من الريف ليدهش بما لم يجُل بخاطره، فتبهره تعز بمعالمها الرائعة وأحيائها الجميلة..وتدهشه القاهرة بنبض حي لم يجده في معشوقته تعز التي «لم يُخلق مثلها في البلاد».

وليوضح للقارئ مدى الظلم الذي عاناه «يمننا الحبيب».. وبعد الانبهار تكون الدهشة من «القاهرة» من الحياة السائدة هناك من الأفكار المتداولة والأماكن المبهرة والتقدم العلمى الذى أخافه فى البداية.

ولنبدأ بكتاب تعز: (لم تعش في ذاكرتي أي مدينة كمدينة تعز، هذه المدينة الرائعة بمآثرها العظيمة التي «لم يخلق مثلها في البلاد»، عامرة بمدارسها ومساجدها وقبابها وأوليائها الصالحين، كانت مركزاً لملوك وسلاطين ومصلحين عظماء على مرّ التاريخ. لم تخمد شعلتها وتنطفئ إلا بعد أن تسلّمها الإمام يحيى وبنوه من الأتراك في بداية القرن العشرين.

تعج أسواقها بالناس والمزارعين القادمين من القرى والهابطين. من «صبر»، جعلها الإمام أحمد عاصمة لمملكته بعد أن أباح صنعاء للنهب عقب فشل ثورة ١٩٤٨، رابضة تحت قبة الوباء والمرض والفقر، سمة تلك المرحلة. ولأنني كنت صبياً قادماً من الريف دخل فضاء أوسع وأكبر من قريته كان لا بد أن أدهش بانبهار الأشياء لم تخطر على بالى..».

كتاب تعز الذي يقع في ٤٨. صفحة، رحلة يعرفنا الكاتب من خلالها إلى معالم وأحداث لم تُذكر من قبل، وإن ذُكرت فليس بروعة ما قدمه زيد مطيع دماج.

أما الفصل الثاني «كتاب القاهرة»، فالابتسامة لا تكاد تغادر شفاه القارئ أثناء قراءته له.. حيث يتحدث الكاتب عن مفارقات ظريفة حدثت له مع زملائه من اليمنيين.. فالانتقال من اليمن إلى القاهرة انتقال «من زمن جامد ميت إلى زمن ينبض بالحركة والحياة، ومن أرض تشكو الرتابة إلى عالم يفيض بالحيوية والنماء».

فالانبهار والدهشة لا تغادران الشاب زيد الذي ذهب للدراسة في مصر عبد الناصر.. فهناك عالم بعيد كل البعد عن الأرض التي كان بها، والذي وصفه بكلمات بسيطة، ولكنها جد معبرة: (عالم عجيب ومدهش يفرض على أي إنسان أن يدقق النظر في كل شيء يراه صغيراً كان أم كبيراً، وبالذات على يافع مثلي قدم من أدغال التخلف وكهوفها ونجا بأعجوبة من الموت والأمراض و الجهل!).

الكتاب جاء مميزاً من الغلاف إلى الغلاف، وليس مستغرباً أن يحقق الكتاب رواجاً كبيراً، ويحقق نسبة قراء مرتفعة، فتلك اللوحات التي أبدع كاتبنا في رسمها وتلوينها جعل من الكتاب أكثر جاذبية وأبهى روعة.. مضافاً إلى ذلك الأسلوب الفريد الذي انتهجه الكاتب والذي ساعد في انتشار الكتاب على المستوى العربي.

زيد مطيع دماج الإنسان والأب:

نرى أن زيد مطيع دماج أورثنا أعمالاً أدبية خالدة، بينما كان هو يرى أنه أورثنا مبدعاً من طراز جديد، حيث نهج الأديب الشاب همدان دماج نهج والده ليصبح اسماً لامعاً في سماء الإبداع المحلى والعربي.

يتحدث همدان دماج، القاص والروائي عن والده ليضيء لنا جانباً من حياة زيد الإنسان والأب، يقول:

«ترتبط أولى ذكرياتي عن والدي في المحويت التى كان يعمل محافظاً لها، وكنت

حينها في الثالثة من العمر تقريباً. كتب زيد مطيع دماج عن تلك الفترة رواية كاملة بعنوان «محافظ في الإرياف» غير أنها للأسف ضاعت ضمن عدد من الكتابات المفقودة.

حينها، ولسنوات أخرى، لم يكن وعيي به كأديب قد تشكل، وكل ما كنت أعرفه كطفل أن والدي كان شخصاً محبوباً ويحظى بمكانة عالية واحترام كبير عند الآخرين. هذا ما كنت أتمسه من معاملة الجميع لي سواء في البيت أم خارجه. ويقدر ما كان هذا الأمر يشعرني بسعادة وزهو طفولي، بقدر ما كان يُلقي على كاهلي مسؤولية لم أكن أفهمها تماماً؛ لكنني كنت أشعر بها دائماً. كان والدي أباً مثالياً بمعنى الكلمة، أدركت هذا الأمر منذ ذلك الحين، وتيقنت أكثر كلما كبرت وعرفت آباءً آخرين، وعندما أصبحت أباً أيضاً. كان عطوفاً إلى درجة كبيرة، ليس فقط معنا، ولكن مع كل من عرفه، بل ومع كل الموجودات تقريباً من حيوان وأشجار، إلى درجة بدت وكأنه مُبالغ بها.

كنت مع أخوتي نقرأ ما يكتبه والدي بنوع من الافتخار والحرص، خاصة أننا كنّا دائماً ما نُسأل من قبل أساتذتنا في المدرسة عن أعماله. لكن كان لكل منا الحرية التامة فيما يريد، وباستثناء النجاح في الدراسة لم نكن مطالبين بأى شيء آخر. لهذا لا أستطيع أن أقول إن والدى هو من حثنى على الولوج إلى عالم الكتابة؛ لكن لا شك أن الجو الثقافي والأدبى الذي كان يحيط بي هو من أعطاني هذا الاهتمام، على الأقل في المراحل الأولى. أتذكر في أحد الأيام أننى تجرأت وسألته لماذا لا يعود إلى العمل السياسي المباشر ويصبح وزيراً أو محافظاً كما كان، أو على الأقل سفيراً مثل من هم أقل منه بكثير... صادف أننى سألته وكان حينها يكتب. قال لى مبتسماً: عندما تكبر ستعرف أن هذا (وأشار إلى الورقة التي كان يكتب عليها) هو المجد الحقيقي، أما المناصب

فلا ينبغي إلا أن تكون وظائف مؤقتة. كانت كلماته مؤثرة، لكنني لم أكن مقتنعاً بها تماماً في ذلك الوقت.

في سنوات لاحقة بدأت أحظى باهتمامه المباشر بميولي الأدبي، فما إن بدأت نشر محاولاتي الأولى حتى وجدت اهتماماً وتشجيعاً كاملاً منه، فكان عادة ما يقرأ على أصدقائه منشوراتي الأدبية في المقيل الأدبي، وخاصة الدكتور عبد العزيز المقالح الذي كان مشجعاً مهماً لى مثل أغلبية الكتّاب والأدباء في اليمن، كما كان يشرف على نشرها في الصحف أولاً بأول، وهكذا بدأ تعاوننا الأدبى ولم يتوقف خاصة عندما كنت أعرض عليه نتاجى القصصى وأستفيد من الملاحظات المهمة التي كان يحاول ألا تبدو كبيرة. وما زلت أتذكر كيف احتضن مجموعتى الأولى «الذبابة» بسعادة وافتخار وهو على سرير المرض قبل أشهر قليلة من وفاته، مظهراً اهتمامه بها أكثر من كتابه السردي «الانبهار والدهشة» الذي صادف أن صدر في نفس الوقت. كان عادة ما يقول «إنني أكتب أفضل من الكثيرين، بل وأفضل منه، وكنتُ دائماً ما أتوارى وراء خجلى وامتنانى بتشجيعه المبالغ به، خاصة وأنا الذي أعرف كقارئ وككاتب أننى كنت أتحدث مع أحد أهم عباقرة السرد العربى المعاصر بدون أية مبالغة أو تحيز».

من أعمال زيد مطيع دماج القصصية:

العقرب

عدت إلى منزلي بعد المقيل – حسب العادة، متأخراً بعض الوقت.. لكي أصل إلى البيت وقد هدأت حدة أطفالي المشاغبين، الذين يقتحمون غرفتي باستمرار لكي يعكروا مزاجي، وصفو أفكاري التي كنت قد اختزنتها في المقيل لأبثها على الورق..

بادرتني طفلتي الكبرى قائلة:

- قلت لك ألف مرة.. أبي..أبي..! هزت رأسها بعدم مبالاة:

- بابى..!!

– يا لطيف..! لن أجيبك..!

لم تنهزم.. ووضعت ورقة بخطها الرديء أمام وجهي.. «اتصل من الحديدة شخص يسأل عن الظاهري»..

أخذت منها الورقة.. أمعنت النظر فيها.. طلبت منها قراءة الاسم لأتأكد.. قرأته.. نعم الظاهرى..!

سألتها ماذا يراد منه ... أجابت بأن عليه سرعة السفر إلى الحديدة، لأن والدته أو زوجته أو شخصاً مهماً لديه في حالة خطيرة كما فهمت .. كان على أن أتأكد من الزوجة ..

أسكت بقية الأطفال بحدة.. احتجت والدتهم لذلك.. اعتذرت وأنا أسألها عن ذلك الاتصال التلفوني، فأجابت:

- كنت مشغولة..

أظهرت غضبي لعدم اهتمامها الدائم بمن يتصل بي..

لوت «شفتيها» كالعادة، ورددت مقولتها

- عسى من سيتصل بك..؟!

كانت تلك هي العبارة الساخرة التي تلوكها دائماً..

لم أعرها اهتماماً. بل عدت إلى مكاني الخاص بعد أن حاولت إبعاد الأطفال عن متابعتي بأذيتهم.. كان أكثرهم إلحاحاً، ذلك الصغير الذي ما زال يزحف على يديه، والذي تعوّد عندما يراني أن يعبّر عن شوقه إليّ ببكائه، وتحفز نحوي لكي يقضي معي بضع دقائق.. كان صادقاً فعلاً في مشاعره.. التي ربما كانت أمه قد عودته عليها كما عودت إخوته، لكي تشغلني عن كتاباتي التي تحرمها دائماً من

الجلوس معي ومن ملاطفتها وسماع أخبارها الطويلة عن فلان، وفلانة، وما حققه بعضهم من مكاسب مادية كشراء أحدهم بعض الحلي الثمينة لزوجته...!

أقنعت طفلي الصغير بعبث محاولاته، عن رجائه لي بأخذه بين يدي، وتركته يعبّر عن سخطه لموقفي الشاذ ببكائه الصارخ، ورفضه لتناول رضاعته التي كانت خير وسيلة لإسكاته دائماً..

محمد الظاهري.. زميل في درب ما أطوله.. لكن أقول الحق، لم أكن مهتماً في تلك اللحظات بما قد يحدث لعائلته، أو أعز وأقرب الناس إليه..! كان اهتمامي منصباً على الكيفية التي تم بها معرفة رقم تلفوني..

وكيف خطر لهم بأن الظاهري يتردد علي، أو هو على صلة بي.. مع العلم أنه لا يبقى إلا في حالة الضرورة القصوى، عندما يكون مختفياً إثر هروبه من سجن أو ملاحقته لاعتقاله..

هالتني الظنون والأوهام.. وزادها إزعاجاً وصول بعض زملاء يريدون قضاء جزء من ليلتهم معى لاستجرار الهموم!!

محمد الظاهري.. ذلك الشاب الملتهب حيوية ونشاطاً.. والذي عركته الأيام بأحداثها.. لم تزده الملاحقات الدائمة إلا صلابة واستمراراً في طريقه الذي نهجه..

ملامحه العامة توحي بالوداعة والبراءة... وربما توحي لمن لا يعرفه بالسذاجة! عندما يدخل أي مقيل يحكم عليه من لا يعرفه أنه شخص عادي.. من أبناء الساحل الذين صهرتهم حرارة الشمس، فأوقدت في بعضهم قوة وصلابة في المواقف الوطنية النضالية العنيدة...

باسم دائماً.. ومنصت أيضاً.. ولكن عندما يستشار تزداد وتتسع تلك الابتسامة فتصبح ضحكة قوية مدوية يعتبرها الذين لا يعرفونه شاذة، وفي غير محلها..!!

الورقة التي كتبتها ابنتي بخطها الرديء ما زالت أمامي أقلّبها بين يدي فترة، وأضغط عليها بأصابعي مرة أخرى.. للحظ ذلك.. أوقفت سير الحوار والمناقشة.. فتوقع الحاضرون شيئاً.. لم أستطع إخباره بذلك الاتصال التلفونى.. لم أدر أكان إشفاقاً به أم إشفاقاً بى؟!!...

> كيف يتحول ذلك الوديع الساذج إلى كتلة من التفجر!؟

> كيف يتحول ذلك الوجه البرونزي اللامع إلى وجه اصطبغ باللون الأحمر القاتم..!!

كيف يطغى منطقه في الكلام على كل كلام؟.. ويصبح سيد الموقف في أي اجتماع.. وينسحب بعد ذلك دون أن يشعر به أحد..

 $\times \times \times$

إذا اختفى .. يعرف الكل أنه معتقل .. وكأنه لا عمل لأجهزة الأمن سوى مراقبته واعتقاله .. وعندما تجتاحهم أمزجة طارئة لكي يمارسوا نوعاً من السادية في تعذيب شخص .. يأخذونه من أي مكان يكون موجوداً فيه ..

ويخرج بعد ذلك ليحدث الآخرين بسخريته المعهودة عن فترة غيابه.. وكأنها مغامرة قام بها لتعطيه معلومات جديدة يضيفها إلى معلوماته السابقة التي ستفيده مستقبلاً لتقديم رسالته العلمية حول «الطرق المستعملة في استخراج المعلومات من المعارضة عبر التاريخ»!!

قال أحدهم إنه رأى «الظاهري» منذ فترة... وآخر قال إنه رآه في نفس اليوم.. واقترح ثالث أن نتصل ببعض الأصدقاء الذين يمكن أن يكون موجوداً لديهم.. هو بلا مقر معروف حتى لدى الإدارة التى يعمل فيها..

حاولنا الاتصال دون جدوى.. فغرقنا في همومنا..

أرهفت سمعي لوقع طرقات على الباب... غمرني شعور بالخوف أن يكون الطارق أحد المندسين الثقلاء، ممن يتصيدون لحظات الانسجام والراحة التي أخلو بها مع أصدقائي في مثل هذه الساعة..

نهضت بينما وجم الأصدقاء بكآبة.. فتحت الباب..

كان هو أمامي.. الظاهري بعينه..!

اندهش باستغراب واضح لعناقي الحار له، عناق غير مألوف.. البسمة تعلو شفتيه كالعادة.. اعتبر لقائي هذا الزائد عن حدّه ناتجاً عن صفاء السهرة..!!

دخل وسلّم بعد أن تخلّص من حرارة الاستقبال..!

لم أحاول أن أفاجئه بذلك الاتصال التلفوني...

ابتسم للجميع محيياً وهو يقول:

- ما فیش فایده؟!

وأخذ مكاناً استقر فيه وقال وهو يبتسم:

- وصلتني مذكرة غاضبة.. رسمية طبعاً!!
تقبلنا الخبر كالعادة فهذا مألوف

ومعروف!!

قال بعد ذلك وبضحكته المعتادة:

- وصادروا جميع النسخ ..!

مز الجميع رؤوسهم وكأن الحدث عادي.. فتابع كلامه بسخرية:

لقد كانت المواد المنشورة مصرحاً بنشرها..!!

تطلعنا إليه لنعرف السبب. فأسهب.. كالعادة.. ما دخل مجلساً إلا وأثار أكثر من قضية، وطرق أكثر من موضوع يفرزه مستقبلاً..

كان منطلقاً مع الزملاء في حواره المعتاد.. الحوار المركز حول قضاياه الهامة..

لم أشارك.. كنت متألماً ومشغولاً.. كيف أخبره بذلك الاتصال التلفوني.. وهو في نشوة الحوار الممتع...؟!

 $\times \times \times$

الورقة التي كتبتها ابنتي بخطها الرديء ما زالت أمامي أقلّبها بين يدي فترة، وأضغط عليها بأصابعي مرة أخرى.. لاحظ ذلك.. أوقفت سير الحوار والمناقشة.. فتوقع الحاضرون شيئاً.. لم أستطع إخباره بذلك الاتصال التلفوني... لم أدر أكان إشفاقاً به أم إشفاقاً بي؟!!...

×××

كان مستمراً في حواره المهم.. ولم يأكل تلك الليلة رغم إلحاحي عليه لمعرفتي بأنه الوحيد الذي يقضي على كل ما يتبقى من مخلفات المائدة في أي ليلة نجلس فيها..

انشغلنا بالعشاء.. فلم يتركنا فجأة.. بل انتظر حتى تأكد من أننا قد انتهينا من الأكل فقال مستأذناً:

- أعزائي.. سأغادركم.. وربما لفترة.. أرجو نقل اعتذاري للأخوة الذين ارتبطت معهم بمواعيد..

أخذ همومه معه، وتركنا لهمومنا..! صنعاء: 20/ 5/ 1980م

أخيراً، يأتي مارس من كل عام لتأتي معه ذكرى رحيل الأديب زيد مطيع دماج الذي مهما قلنا وكتبنا عنه فلن نفيه حقه في التقدير، فحسبنا أنه حلّق بالأدب اليمني عربياً وعالمياً.